"التضمين العروضى رؤية في ضوء علم الوقف والابتداء".

الفاتح محمد محمد إبراهيم (*)

يناقش البحث قضية "التضمين العَروضى" معتمدًا على إسهامات علم الوقف والابتداء الخاص بالدراسات القرآنية.

وقد ظهر الوقف والابتداء بوصفه من علوم القرآن الكريم، وأكثرَ العلماءُ الكتابةَ فى هذا العلم؛ فظهرتْ مؤلَّفات عديدة، واصطلاحات خاصة به. أما التضمين العروضى فقد تناوله العلماء بالحديث، وجاءت الكتابات الخاصة به بالمعاجم ومصادر البلاغة والنقد، بالإضافة إلى كتب القوافى.

وفكرة البحث جاءت لكون القرآن الكريم يشتمل على آيات، والآيات تنتهى بفواصل كثيرًا ما يكون بينها تجانس موسيقى؛ والشعر العربى يشتمل على أبيات، والأبيات تنتهى بقوافٍ متجانسة موسيقيًّا بالضرورة. وانتهاء الآية أو البيت مع نهاية تركيب نحوى مستقل يعنى توافقًا بين وقفة النحو والدلالة، ووقفة الإيقاع. لكن حينما تنتهى الآية أو البيت مع عدم انتهاء المعنى؛ فهذا يعنى وجودَ مخالفة بين وقفة النحو والدلالة من جانب، ووقفة الإيقاع من جانب آخر.

وليست المسألة مقتصرة على الوقف، بل إن للمسألة بعدًا آخرَ متعلِّقٌ بالابتداء؛ فالابتداء بالآية التالية، أو البيت التالى؛ قد يكون سائغًا لعدم اتصال التركيب النحوى بما قبله، وقد يستوجب ذكر ما قبله؛ لتعلُّق التركيب.

وعدم توافق نهاية البيت مع تركيب نحوى تام يعنى وجود "التضمين العَروضى". وهو الأمر الذى يتناوله البحث بالدراسة بأبعاده المختلفة. ولعل تعلُّق البيت بما قبله يندرج تحت التضمين –أيضًا- بمفهومه الواسع، حسبما ذكر بعض القدماء، وسيأتى الحديث عنه لاحقًا.

(*) المدرس المساعد بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: التضمين العروضي بين نحو الجملة ونحو النص؛ دراسة في شعر الصعاليك الجاهليين"، تحت إشراف: أ.د. فتوح أحمد خليل – كلية الآداب – جامعة سوهاج & أ.د. ياسر حسن رجب – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

أسباب اختيار موضوع البحث:

١- وجود إسهامات قيِّمة خاصة بعلم الوقف والابتداء بكتب التراث وبعض الكتب الحديثة. وهذه الإسهامات لها أهميتها، وتستحق أن نُفيد منها فى مجالات شتى.

٢- تناول الدراسات والمصادر التضمين العروضى –على حد علم الباحث- بشكل مستقل فى أغلب الحالات، دون الإفادة بالتراث الكبير الخاص بالدراسات القرآنية.

٣- جاءت كثير من علوم العربية متماشيةً مع فكرة "مركزية النص القرآنى"؛ فهذه العلوم تدور حول فلَك القرآن الكريم مفيدةً من كافة المعارف العربية والتراث الأدبى؛ لتفسير القرآن الكريم، ومعرفة وجوه البلاغة والإعجاز به. وقد أثْرَتْ هذه العلوم ونضجت؛ مما يصلح معه أن نفيد منها فى الدراسات الخاصة بآداب العرب؛ فتكون الفائدة متبادلة.

هدفا البحث:

يهدف البحث إلى:

١- تقديم رؤية مركَّزة تتناول "التضمين العروضى" بنظرة مختلفة قائمة على الإفادة من إسهامات علم الوقف والابتداء.

٢- إضافة تصنيف جديد خاص بالأبيات الشعرية، وعلاقتها بصور التضمين العَروضى المختلفة فى ضوء علم الوقف والابتداء.

أهمية البحث:

يقدم البحث رؤية مختلفة خاصة بالتضمين العَروضى، قد تسهم فى إعادة قراءة الأبيات المُضَمَّنة قراءةً جديدة. مع فتح الباب للإفادة من الدراسات الخاصة بالقرآن الكريم، ووضعها فى الاعتبار لإعادة النظر فى بعض القضايا الخاصة بالأدب بشكل عام.

والتضمين لغةً: "كلُّ شىءٍ أُحرِز فيه شىءٌ؛ فقد ضُمِّنَه"[١]. "والمضامين من الأولاد: التى ضمِنتْها الأرحام"[٢]. وفى الصِّحاح: "ضمِنتُ الشىءَ ضمانًا: كفلتُ

[١]- معجم العين للخليل، مادة "ضمن"، ج٣، ص٢٦.

[٢]- معجم العين للخليل، مادة "ضمن"، ج٣، ص٢٧. وراجع: تهذيب اللغة للأزهرى، مادة "ضمن"، ج١٢، ص٤٩، ٥٠.

به؛ فأنا ضامن وضمين. وضمَّنْتُه الشىء تضمينًا؛ فتضمَّنه عنى، مثل: غرمتُه. وكلُّ شىءٍ جعلتَه فى وعاءٍ؛ فقد ضمَّنتَه إياه"[1].

واصطلاحًا قد اختلف القدماء فى حد التضمين العروضى، وهذه الخلافات مبثوثة بالمعاجم، وكتب العَروض والقافية، ومصادر البلاغة والنقد. ويختار البحث ثلاثة تعريفات؛ ففى تهذيب اللغة للأزهرى: "وقال الليث: المضمَّن من الشعر: ما لم يتم معانى قوافيه إلا بالبيت الذى يليه، كقول الراجز:

يا ذا الذى فى الحبِّ يُلحِى أمَا
واللهِ لو عُلِّقْتَ منه كما
عُلِّقْتُ من حبِّ رخيمٍ لَمَا..."[2].

وحسب تعريف أبى هلال العسكرى؛ فالتضمين: أن يكون الفصل الأول مفتقرًا إلى الفصل الثانى، والبيت الأول محتاجًا إلى الأخير، كقول الشاعر:

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيل: يُغدَى ... بليلى العامريَّةِ أو يُراحُ
قطاةٌ غرَّها شَرَكٌ فباتتْ ... تُجاذِبُه، وقد عَلِقَ الجناحُ[3].

ومن الواضح استدعاء العسكرى الرابط بين الشعر والنثر؛ فكتابه حول الصناعتين؛ فالتضمين ليس مقتصرًا على الشعر فقط.

والتضمين حسب تعريف الشنترينى: "ألا يتم معنى البيت إلا بما بعده، سواء تم اللفظ أو لم يتم"[4]. ولعل المقصود من تمام اللفظ عند الشنترينى أن تعطى نهاية البيت الأول تركيبًا نحويًّا مفيدًا، ولكن تمام المعنى يحتاج إلى البيت الثانى. وهو ما يتضح من كلامه التالى؛ إذ يقول: غير أنه إذا تم لفظ البيت الأول، وجاء البيت الثانى كالمفسر له، والمبيِّن لمعناه؛ لم يكن عيبًا، كقول امرئ القيس:

وتعرف فيه من أبيه شمائلًا ... ومن خاله ومن يزيدَ ومن حُجُرْ

---

[1]- الصِّحاح للجوهرى، ج٦، ص٢١٥٥. و"الترقيم شامل الأجزاء كلها".
[2]- تهذيب اللغة للأزهرى، مادة "ضمن"، ج١٢، ص٥٠. والأبيات تُنسَب لعمر بن أبى ربيعة، في ديوانه، ص٣٥٤، وهي على بحر السريع، وقد جاء مشطورًا، وليس على الرَّجَز، وبالديوان: "حُمِّلْتُ" بدل "عُلِّقْتُ" في الحالتين.
[3]- انظر: الصناعتين للعسكرى، ص٣٦. والبيت من "الوافر التام"، وهو بديوان مجنون ليلى، وفيه "عزَّها" بدل "غرَّها"، ص٧٣.
[4]- الكافى فى علم القوافى للشنترينى، ص٥٤.

سماحةُ ذا، وبرُّ ذا ووفاءُ ذا ... ونائلُ ذا، إذا صحا وإذا سكِرْ"[١].

وتظهر من هذه الأمور إشكالات متعددة حول موضع التعلق بالبيت، وحقيقته من حيث الموقع النحوى للمتعلِّق والمتعلَّق به، ومدى احتياج أىٍّ البيتين للآخر.

أما الوقف والابتداء؛ فهو: "فنٌّ جليل، وبه يُعرَف كيفُ أداءِ القرآن الكريم، ويترتب على ذلك فوائد كثيرة وا ستنباطات غزيرة، وبه تتبين معانى الآيات، ويؤمَن الاحترازُ عن الوقوع فى المشكلات"[٢]. وقد ألف عديد من العلماء فى الوقف والابتداء قديمًا وحديثًا؛ ومنها على سبيل التمثيل: "القطع والائتناف" لأبى جعفر النحاس "٣٣٨هـ"، و"المكتفَى فى الوقف والابتدا" لأبى عمرو الدانى "٤٤٤هـ"، و"عِلَلُ الوُقوف" للسَّجاوندى "٥٦٠هـ"، و"منار الهُدى فى بيان الوقف والابتدا" للأشمونى "ق١١هـ". بالإضافة لما ورد بكتب علوم القرآن الكريم كـ"البرهان فى علوم القرآن" للزركشى "٧٩٤هـ"، و"الإتقان فى علوم القرآن" للسيوطى "٩١١هـ".

والوقف والابتداء قد يتناول كيفية قراءة الحرف الموقوف عليه، والحرف المُبتدَأ به، ويدرس ما يُشكل على بعض الناس فى التلاوة وقفًا وابتداءً فى طريقة الأداء صوتيًّا. وهذا الأمر لا علاقة له بهذا البحث، بل البحث يعتمد على الوقف والابتداء الخاص بالتركيب النحوى، والمواضع التى يُستحَب الوقوف عليها، وما لا يستحب، وكذا فى الابتداء...إلخ.

وللسيوطى إشارة لوجود التضمين بالفواصل القرآنية، وقد ذكره باسمه المعروف بقوافى الشعر؛ فقال: "كثُر فى الفواصل التضمين والإيطاء؛ لأنهما ليسا بعيبين فى النثر، وإن كانا عيبين فى النظم؛ فالتضمين: أن يكون ما بعد الفاصلة متعلقًا بها، كقوله تعالى: "وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ"[٣].

---

[١]- المصدر نفسه، ص٥٤. وفيه جاء بالبيت: ووفا ذا، بقصر الممدود، وهو خطأ. والبيتان من "الطويل"، بديوان امرئ القيس، ص٧٥.

[٢]- البرهان في علوم القرآن للزركشى، ج١، ص٢٣٧.

[٣]- الإتقان في علوم القرآن للسيوطى، ص٦٢٤. والآيتان: ١٣٧، وبعض ١٣٨ من الصافات.

والاعتماد الرئيس –فى هذا البحث- يكون على كتاب "المُكتَفَى فى الوقف والابتدا" لأبى عمرو الدانى؛ لأن المقام يضيق عن سرد الآراء كافة؛ لتعدد المراجع.

وقد ذكر أبو عمرو اختلاف العلماء فى أقسام الوقف؛ فالوقف عند بعضهم على أربعة؛ تام مختار، وكافٍ جائز، وصالح مفهوم، وقبيح متروك. وهذا الرأى قد اختاره أبو عمرو؛ لما فيه من التيسير على القراء؛ لانقطاع النَّفَس فى كثير من المواضع[1].

والوقف التام: هو الذى يحسن القطع عليه، والابتداء بما بعده؛ لأنه لا يتعلق بشىء مما بعده، وذلك عند تمام القصص وانقضائهن... ومثال عليه فى الفواصل: "وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ". والابتداء بقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...". ومثال عليه قبل انقضاء الفاصلة: "وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً". هذا هو التمام؛ لأنه قول بلقيس، وما بعده: "وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ" قول الله "عزَّ وجلَّ"[2].

والوقف الكافى: هو الذى يحسن الوقف عليه –أيضًا- والابتداء بما بعده، غير أن الذى بعده متعلِّق به من جهة المعنى دون اللفظ ومثاله بالفواصل: الوقف على رءوس الآى ببدايات التكوير والانفطار والانشقاق، وما يشبهها. ومثاله داخل الآى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ..."؛ فالوقف على كلٍّ من "أُمَّهَاتُكُمْ" و"وَبَنَاتُكُمْ" و"وَأَخَوَاتُكُمْ" كافٍ[3].

والوقف الحسن: هو الذى يحسن الوقف عليه، ولا يحسن الابتداء بما بعده؛ لتعلُّقه به من جهة اللفظ والمعنى جميعًا". ومثاله بالفواصل: قوله تعالى: " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣)"؛ فالوقف على "العالمينَ" حسن؛ لأن المعنى مفهوم، أما الابتداء بـ"رَبِّ الْعَالَمِينَ"، و"الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ"، و" مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ"؛ فلا يحسُن؛ لأن ذلك مجرور، والابتداء بالمجرور قبيحٌ؛ لأنه تابع لما قبله. ويُسمَّى هذا الضرب صالحًا؛ إذ لا يتمكن القارئ أن يقف فى

---

[1]- راجع: المُكتَفَى في الوقف والابتدا، لأبى عمرو الدانى، ص١٣٨، ١٣٩.

[2]- للمزيد: راجع: المرجع نفسه، ص١٤٠: ١٤٢. والآية المذكورة: ٣٤ من سورة النمل. وللشيخ الحصرى اعتراض -له وجاهته- على كون الوقف على " أَذِلَّةً" تامًّا، يُرجَع إليه في كتابه: "معالم الاهتداء إلى معرفة الوقوف والابتداء"، ص١٩، ٢٠.

[3]- للمزيد: راجع: المرجع نفسه، ص١٤٣، ١٤٤. والآية المذكورة: ٢٣ من "النساء".

كل موضع على تامٍّ ولا كافٍ؛ لأن نفَسَه ينقطع دون ذلك[١]. وقد يتبين للقارئ أن أبا عمرو يقبِّح الابتداء بالآية التالية فى حال كونها متعلقة بما قبلها لفظًا ومعنًى، ولكن الأمر على مستوى التنظير يختلف عن التطبيق؛ إذ يذكر "الدانى" بعدها حديثَ أمِّ سلمة أن النبى "صلى الله عليه وسلَّم" كان إذا قرأ قطَّع قراءتَه آيةً آيةً[٢].

والوقف القبيح: هو الذى لا يُعرَف المراد منه، مثل الوقف على "بِسْمِ"، و"مَالِكِ" و"رَبِّ"، وما أشبهه؛ والابتداء بـ"اللهِ"، و"يومِ الدِّين"، و"العالَمينَ"؛ لأنه إذا وُقِف على ذلك لم يُعلَم إلى أىِّ شىءٍ أُضيفَ. وهذا يُسمَّى "وقف الضرورة"؛ لتمكُّن انقطاع النَّفَس عنده. والجُلَّة من القراء وأهل الأداء ينهون عنه، ويستحبون لمن وقف عليه لانقطاع النَّفَس أن يرجع إلى ما قبله؛ حتى يصله بما بعده... وقد يأتى على رأس الآية كقوله تعالى: "أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"[٣]؛ فالوقف على رأس الآية الأولى، والابتداء بـ"وَلَدَ اللَّهُ" لا تخفى شناعته؛ لأنه ينسب الولد لله "سبحانه وتعالى"، ولا يحيل الكلمة إلى قائليها من المشركين.

مما سبق يتضح أن أبا عمرو يحكمه فى الوقف التعلُّق؛ ويكون فى اللفظ والمعنى بالحَسَن، وبالمعنى فقط بالكافى، ولا يكون فى أىٍّ منهما؛ فيصبح الوقف تامًّا. أما الوقف القبيح؛ فيزيد على التعلق أمر خاص بالمعنى؛ إذ لا يُفهَم منه شىء لشدة التعلق، أو يُفهِم معنًى غير المراد.

وهناك عامل ثانٍ لم يغفل القراء عنه، وهو عامل النَّفَس. وهذه العوامل مهمة لمحاولة وضع مقاربة للإفادة منها فى الشعر العربى.

---

[١]- راجع: المرجع نفسه، ص١٤٥.

[٢]- انظر: المرجع نفسه، ص١٤٧. والحديث بسنن أبى داود عن أم سلمة أنها ذكرت قراءة رسول الله "صلى الله عليه وسلم": "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ" يُقَطِّع قراءتَه آيةً آيةً. سنن أبى داود، ج٦، ص١٤٢، رقم الحديث: ٤٠٠١. وفى تعقيب شعيب الأرناءوط على سند الحديث بالهامش ذكر أن رجاله ثقات، إلا أنه اختلف فيه على عبدالله بن أبى مليكة، وذكَر تصحيح ابن خُزيمة والدارقطنى والحاكم له. والحديث في سنن الترمذى "أن النبى "صلى الله عليه وسلم" كان يُقطِّع قراءتَه". ج٥، ص١٨٦، رقم الحديث: ٣١٥٠.

[٣]- للمزيد: راجع: المرجع نفسه، ص١٤٨: ١٥٣. وقد عدَّد مواضعَ كثيرة للوقف القبيح. والآيتان: ١٥١، وبعض ١٥٢ بالصافات.

والشعر العربى مختلف عن كل من القرآن والنصوص النثرية؛ فالشعر يحكمه نظام البيت، وقد حدد شكل البيت القصيدة الشعرية بوقفات ثابتة تتخللها؛ فالشعر العربى –فى أغلبه- تحكمه وقفتان؛ لوجود الشطرين، والشطران يحدد طولَهما النظامُ العروضى المحكم الذى جعل الشطر يلتزم عددًا ثابتا من التفعيلات طوال القصيدة. وينتهى البيت الشعرى بقافية يتم تكثيف العناصر الموسيقية بها؛ لالتزام الشاعر العربى بأحرف وحركات يُعاب إذا استهان بشىء منها.

والقافية بالبيت تقابلها الفاصلة بالآية القرآنية. والفاصلة فى كثير من الأحيان تلتزم التوافقَ الموسيقى "السجع إن جازت التسمية". وقد فطن بعض القدامى لهذا التشابه، وبه احتج ابن الأثير على عدم عيب التضمين؛ لأنه وجد الكثير من الآيات لا تلتزم فيها الفواصل انقضاء المعنى واللفظ؛ فأحيانا لا يستقيم المعنى المراد، إلا بذكر ما بعدها. وذلك بقوله: "لأنه إن كان سبب عيبه (يقصد التضمين) أن يعلِّق البيت الأول على البيت الثانى؛ فليس ذلك بسبب يوجِب عيبًا؛ إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر، وبين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق إحداهما بالأخرى..."[1].

واحتج ابن الأثير ببعض النماذج القرآنية؛ منها الآيات: "فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ(١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ(١٦٣)"[2].

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ وبناءً عليه يتبين أن الفاصلة فى الآية، والقافية بالبيت لا تحددان الوقف المعنوى بشكل قاطع، بل تتصل أحيانًا الوقفتان الموسيقية والنحوية، وأحيانًا تنفصلان.

ولعل أكثر الشواهد على أبيات التضمين ورودًا بكتب العَروض بيتا النابغة[3]:

وهمْ وردوا الجفارَ على تميمٍ ..... وهم أصحابُ يومِ عُكاظ، إنِّى

شهدتُ لهمْ مواطنَ صادقاتٍ ..... أتينَهمُ بودِّ الصدر منِّى

وقد جاء التعلق فى البيتين بين "إن واسمها" بقافية البيت الأول من جانب، و"خبرها" بالبيت الثانى. والتعلق هنا قوى بين البيتين لهذا السبب؛ فالوقف على

---

[1]- المثل السائر، لابن الأثير، ج٣، ص٢٠١.

[2]- للمزيد: راجع: المثل السائر لابن الأثير، ج٣، ص٢٠٢، ٢٠٣. والآيات الثلاث من "الصافات ١٦١: ١٦٣".

[3]- ديوان النابغة، ص١٢٤. والبيتان من الوافر التام.

البيت الأول لا يفيد معنًى، أما الابتداء بالبيت الثانى؛ فيعطى معنًى؛ فالمشكلة هنا فى الوقف على قافية البيت الأول، وليس فى الابتداء بالبيت الثانى.

ويبدو أن المشكلة فى بيتى النابغة ليست قاصرة على التعلق النحوى، بل فى موضع التعلق؛ فكما يهمنا السؤال: أين تنتهى الجملة النحوية؟ عند قافية البيت، أم تمتد للبيت التالى؟ فكذلك يهمنا أن نسأل: أين بدأت الجملة؟

وبدء الجملة بكلمة "إنِّى" -التى جاءت بنهاية البيت الأول- جعلت كلمة القافية تبدو شاذة بالبيت؛ فبينها وبين بقية البيت الأول قطيعة نحوية؛ لأنه بكلمة "عكاظَ" تنتهى الجملة الأولى، وبينها وبين البيت الثانى قطيعة عروضية؛ لانتهاء البيت بها، والتزام المنشد الوقف العروضى[١].

ومما سبق يتضح أن شدة التعلق وموضعه عاملان مؤثران فى تحديد الموقف من التضمين؛ وقد ذكر بعض القدامى ذلك؛ ومنه قول ابن رشيق: "وكلما كانت اللفظة المتعلقة بالبيت الثانى بعيدة من القافية، كان أسهلَ عيبًا فى التضمين"[٢].

وإذا تجاوزنا هذه النقطة للبحث فى التضمين العَروضى، وعلاقته بأقسام الوقف التى حددها القدماء؛ فإن الوقف التام لا ينبئ عن تضمين عروضى، ومثال عليه قول امرئ القيس[٣]:

وما جُنَتْ خيلى، ولكنْ تذكَّرَتْ ... مرابطَها من بَرْبَعِيصَ ومَيْسَرا

ألا رُبَّ يومٍ صالحٍ قد شهدتُه ... بتاذفَ ذاتِ التلِّ من فوق طَرْطَرا

ينتهى البيت الأول مع نهاية تركيب نحوى يعطى معنًى تامًّا. والبيت التالى به تركيب نحوى تام يحمل معنًى مستقلًّا. ولكن هذا لا يمنع وجود ترابط معنوى بين البيتين؛ فالأول حديث عن تذكر الخيل مرابطها، والثانى ذكر الوقائع التى خاضها الشاعر.

---

[١]- انظر: الوقفة في المسرح الشعرى عند صلاح عبدالصبور، رسالة ماجستير مخطوطة للباحث، ص٢٢.

[٢]- العمدة لابن رشيق، ص٢٧٣.

[٣]- ديوان امرئ القيس، ص٦٦. والبيتان من الطويل. و"بربعيص" و"ميسر" و"تاذف" و"طرطر" أسماء مواقع يبدو أنها بالشام، وللتفصيل راجع: معجم البلدان لياقوت الحموى، حسب ترتيبها: "ج١، ص٣٧١"، و"ج٥، ص٢٤٣"، و"ج٢، ص٦"، و"ج٤، ص٢٩".

ولعل أتمَّ منه ما يكون عند الانتقال من قصة إلى أخرى، كقول امرئ القيس بمعلقته[1]:

وما ذرَفتْ عيناكِ إلا لتضربى ... بسهميكِ فى أعشار قلبٍ مُقتَّلِ

وبيضةِ خدرٍ لا يُرامُ خباؤُها ... تمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرِ مُعْجَلِ

فلم يخرج الشاعر فى بيته الثانى عن النسيب الذى ابتدأ به، لكنه انتقل من قصة لأخرى. وأتمُّ منه ما يكون عند الانتقال من غرض لآخر، ومثاله بالمعلقة:

ألا رُبَّ خصمٍ فيكِ ألوَى رددتُه ... نصيحٍ على تعذالِه غيرِ مؤتَلِى

وليلٍ كموجِ البحر أرخى سدولَه ... علىَّ بأنواع الهمومِ ليبتلى

فالشاعر فى البيت الأول يتحدث عن رفضه قول العاذل ووقيعته بينه وبين المحبوبة؛ فالمعنى لا يخرج عن غرض الغزل، أما البيت التالى فينتقل إلى "شكوى الليل والحزن". والغرض قد تغير بين البيتين؛ فالوقف على البيت الأول يعطى معنًى غاية فى التمام. ولكن يتبقى خيطٌ دقيق يصل الأبيات بأغراضها المختلفة؛ فيجعل المعنى مترابطًا بينها على اختلاف أغراضها[2]. وتبقى هذه الصورة أبعد الصور عن حقيقة التضمين.

ومثال على الوقف الكافى، بيتا امرئ القيس، وقد سبق ذكرُهما:

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ...

ذكر الشنترينى هذين البيتين، وعقَّب بقوله: "غير أنه إذا تم لفظ البيت الأول، وجاء البيت الثانى كالمفسر له والمبين لمعناه؛ لم يكن عيبًا"[3].

ويتضح من البيتين أن الوقف على البيت الأول يعطى معنًى تامًّا؛ لأنه يقوم على تركيب نحوى مستقل، ولكن المعنى الذى أراده الشاعر يحتاج إلى بعض التفسير، بتفصيل هذه الشمائل، وجاء البيت الثانى؛ ليؤدى هذا الدور. أما الابتداء بالبيت الثانى، دون الرجوع للأول؛ فيعطى معنًى مشوَّشًا؛ فلا نعرف من الذى يشير إليه الشاعر ب"ذا" التى تكررت أربع مرات، ومرجعيتها بالبيت الأول

---

[1]- ديوان امرئ القيس، ص١١٦، ١١٧. والبيتان من الطويل.

[2]- توجد دراسات تناولت قضية الوحدة، منها دراسة بعنوان: "عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلى، لسعيد الأيوبى.

[3]- الكافى في علم القوافى للشنترينى، ص٥٥.

عائدة على "أبيه" و"خاله" و"يزيدَ" و"حُجُر"؛ وعليه فإن احتياج البيت الثانى للأول أكثر من احتياج الأول للثانى.

ومثال ثانٍ بيتا امرئ القيس[١]:

فقالت: سباكَ اللهُ، إنَّكَ فاضِحى ... ألسْتَ ترى السُّمَّارَ، والناسُ أحوالى

فقلتُ: يمينَ اللهِ أبرَحُ قاعدًا ..... ولو قطَّعوا رأسى لديكِ، وأوصالى

فاللفظ تام بنهاية البيت الأول، ولكن المعنى متصل بين البيتين؛ فالبيت الثانى جواب من الشاعر لكلام محبوبته. والوقف على البيت الأول يُعطى جملة تامة مكتملة، أما الابتداء بالبيت الثانى –دون ذكر الأول- فغير سائغ؛ لابتدائه بالفاء، وتعلُّق الفعل "قلتُ" بالبيت السابق؛ فهو لا يصح إلا أن يكون ردًّا على كلام سابق.

والوقف -على البيت الأول بالمثالين السابقيْنِ- "كافٍ". وحسب مفهوم "التضمين"؛ فهذان البيتان وأضرابهما يصدق عليهما مفهوم التضمين عند بعض القدامى، ومنه ما سبق ذكره من رأى الشنترينى. ولكنه لم يرَه عيبًا، بل جعل العيب فى تعلق اللفظ. ولولا ضيق المقام لجاء تفصيل لآراء القدماء بالمسألة، واختلافاتهم.

ومثال على الوقف الحسن قول امرئ القيس يصف فرَسَه[٢]:

وقد أغتدى قبل الشروع بسابحٍ ...أقبَّ كيعفورِ الفلاة مُجَنِّبِ

بذى مَيْعةٍ كأنَّ أدنى سِقاطِه ... وتقريبِه هونًا دآليلُ ثعلبِ

عظيمٍ طويلٍ مطمئنٍّ كأنَّه ... بأسفلَ ذى ماوانَ سرحةُ مرقبِ

الوقف على البيت الأول حسن؛ لأنه يفيد تركيبًا ومعنًى تامًّا، لكن الابتداء بالبيت الثانى لا يحسُن دون ذكر الأول؛ حيث يبدأ بالجار والمجرور المتعلِّقيْنِ بما قبلهما بالبيت السابق.

وكذلك الوقف على البيت الثانى حسن؛ لأنه يفيد معنًى تامًّا، ويمثل تركيبًا نحويًّا مفيدًا، لكن الابتداء بالبيت الثالث دون ذكر الثانى لا يحسُن؛ إذ يبدأ بالصفة

---

[١]- ديوان امرئ القيس، ص١٢٥. والبيتان من الطويل. وسقطت بالنسخة كلمة "ترى" بالشطر الثانى من البيت الأول.

[٢]- ديوان امرئ القيس، ص٣٢، ٣٣. والأبيات من الطويل.

المجرورة "طويلٍ"، وموصوفها بالبيت الثانى. وفى مثل هذه الأبيات يكون البيت اللاحق متعلِّقًا بالبيت السابق لفظًا ومعنًى.

وهذا الضرب قد يدخل فى التضمين بمفهومه الواسع.

ومن أمثلة الوقف القبيح، ما ذكرتْ بعضُ كتب العروض:

فليس المال؛ فاعلمه بمالٍ ... من الأقوام إلا للَّذِىِّ

يريد به العلاءَ ويمتهنْه ... لأقربِ أقربيه، وللقصىِّ

فانتهاء البيت الأول بالاسم الموصول، وتأخر صلته ببداية البيت التالى جعله قبيحًا، وقد عدَّه القدماء أقبح التضمين؛ فالموصول والصلة فى شدة الاتصال كالشىء الواحد؛ لأن الموصول لا يستغنى عن صلته[1].

والوقف فى الشعر العربى متعلق بنهايات الأشطر والأبيات أكثر من تعلقه بنهايات التراكيب النحوية؛ وذلك لأن البناء الموسيقى للشعر العربى له أهمية بالغة فى إنشاده. "والشعر يكسر البناء المنطقى للجملة؛ فيقف على غير مواضع الوقوف، ويفصل بين أجزاء الجملة بعضها وبعض، ويشعِّث كثيرًا من هذه الأجزاء، ويكون هذا مقبولا فيه؛ لأنه فصلٌ وتشعيث فى مقابل غاية فنية"[2].

ولعل التزام القافية بنهاية البيت الشعرى العربى كان سببًا قويًّا لالتزام الوقف بنهاية البيت، والتضحية بوقف الجملة اللازم بالنثر.

ويرى الباحث أن النثر المسجوع –مقامات الحريرى مثلا- يُلزم القارئ بالوقفات الموسيقية التى يحددها السجع، وليس التركيب النحوى؛ وفى تلاوة القرآن الكريم كذلك، وقد سبق ذكر الحديث الذى وصف تلاوة النبى بأنه "صلى الله عليه وسلم" كان يقف على رءوس الآى؛ فلمراعاة التجانس الموسيقى أولوية؛ لأن له وقعًا مؤثرًا على الأسماع، ومن ثم القلوب، وليس الأمر مجرد التزام شكلى.

---

[1]- انظر: القوافى للإربلى، ص١٦٠، ١٦١. والبيتان من الوافر التام. ولابن جنى –وهو الأسبق- قول مشابه فى هذين الشاهدين، ذكره الزَّبيدى، انظر: تاج العروس للزَّبيدى، ج٣٥، ص٣٣٥، ٣٣٦.

[2]- الجملة في الشعر العربى، محمد حماسة عبداللطيف، ص٢٦. وقد استدل المؤلِّف على رأيه بعينية سويد بن أبى كاهل، التى مطلعها: بسطت رابعة الحبلَ لنا... فوصلنا الحبلَ منها ما اتَّسَعْ"؛ فالبيت قد التزم بحر الرَّمَل، ووجود القافية المقيَّدة مع التزام الوزن يمنع المنشدَ أن يصلَ البيتين؛ لأن الوصل يعنى فتح العين بنهاية البيت؛ مما يُخل بالوزن الشعرى، وكذلك بتجانس القوافى. راجع: المرجع نفسه، ص٢٦، ٢٧.

وإن كان الأمر هكذا؛ ففى الشعر تكون وقفة نهاية البيت أكثر أهمية؛ لأنها مرتبطة بالتزام إيقاعى مؤثر لوجود حروف القافية وحركاتها، بالإضافة لالتزام شكلى خاص بالوزن؛ فالبيت يمثل وحدةً عروضية مكررة بطول ثابت.

والوقف بنهاية كلٍّ من البيت والفاصلة والآية مع عدم تمام المعنى يكون بنية الوصل، وتتأكد هذه النية مع زيادة التعلق بين البيتين. وتتضح هذه النية مع الإنشاد، بالتنغيم؛ حيث إنه "إذا وقف المتكلم قبل تمام المعنى وقف على نغمة مسطَّحة لا هى بالصاعدة، ولا بالهابطة..."[1]. وكذلك يتضح أن الأكثر مناسبةً للوقف التام أن تكون الوقفة طويلة أكثر منها مع الوقف الكافى والحسن، وفى حالة الوقف القبيح تكون المدة أقل؛ وبناءً على ما سبق يتضح أن التضمين لا ينفصل عن بقية الظواهر الخاصة بالنص.

الخاتمة، وأهم النتائج:

جاء البحث محاولةً للربط بين الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم الخاصة بعلم الوقف والابتداء، والإفادة منها فى دراسة التضمين العروضى؛ وتقديم قراءة جديدة لبعض الأبيات التى جاءت بها هذه الظاهرة. وقد خرجت بعدة نتائج، لعل أهمها:

١- التضمين العَروضى ظاهرة شعرية تستحق البحث والمعالجة من خلال النص الشعرى، دون أحكام مسبقة؛ فالنص الشعرى، وتجاوب التضمين مع العناصر الفنية بالنص، ومنها التركيب النحوى النحو؛ كل ذلك يقدم حيثياتِ الحكم باستجادة التضمين أو عيبه.

٢- الحكم على التضمين العَروضى فرعٌ من أمور مركبة؛ حيث إن موضع التعلُّق بالبيت الأول، وصلاحية الابتداء بالبيت التالى، ومدى ارتباط التعلق النحوى؛ كلها أمور توضَع فى الاعتبار بمواضع التضمين.

٣- بالنظر إلى المعطيات التى يقدمها علم الوقف والابتداء؛ فإن تطبيقها على الشعر مع وضع التضمين فى المعادلة ينتج تصنيفًا للأبيات فعندما يكون الوقف على البيت الأول تامًّا؛ فلا يوجد ـثمةـ تضمين. وقد يكون

[1]- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص٢٣٠. وقد ذكر تمام حسان أنه بخلاف ذلك؛ فالجمل كلها تنتهى بنغمة هابطة، ويُستثنَى من ذلك الجمل المبدوءة باستفهام بالأداتين؛ هل والهمزة.

الوقف كافيًا إذِ التعلُّق فيه من جهة المعنى، وهذا قد يدخل باب التضمين بمفهومه الواسع، والوقف الحسن يكون التعلُّق من جهة اللفظ والمعنى، ويكون أدخَلَ فى باب التضمين، والوقف القبيح والتضمين فيه أشد. وهذا التصنيف من ضمن معايير عدة تحدد مدى عيب التضمين.

٤- يقدم البحث طرحًا لتصنيفٍ ثانٍ للأبيات مراعيًا الوقف والابتداء من جانب والتضمين من جانب آخر؛ فتكون القسمة رباعية؛ فهناك أبيات يكون التضمين فيها خاصًّا بالبيت السابق، وأبيات يكون التضمين خاصًّا بالبيت اللاحق، وأبيات يكون التضمين خاصًّا بالبيتين، وأبيات لا تضمين فيها.

أما الأولى فيكون الوقف عليها مُلْبِسًا؛ لتعلُّقها بما بعدها، والثانية يكون الابتداء بالبيت الثانى هو المُلبِس لتعلُّقه بما قبله، أما الثالثة فتكون المشكلة مزدوجة تكمن فى الوقف على الأول وأيضًا فى الابتداء بالثانى، أما الرابعة؛ فلا تضمين؛ لأن الوقف على الأول تام، ويحسن الابتداء بما بعده لغياب التعلق أو ضعفه.

ويوصى البحث بضرورة مراعاة إسهامات علم الوقف والابتداء، وإمكانية ظهور دراسة علمية شاملة لشواهد التضمين العروضى بكتب القدماء، وتنوع أحكامهم عليها تجويزًا وتعييبًا. وكذلك يطمح البحث إلى ظهور دراسات موسَّعة لإشكالات التضمين، مع مراعاة اختلاف العلماء المسهمين بدراسات الوقف والابتداء؛ ليتجاوز البحث العلمى تلك الأحكام العامة النمطية التى تضع التضمين العروضى فى قالب واحد، وتصمه بالعيب، وكذلك تلك الأحكام التى تحكى إجماع القدامى على عيب التضمين، وما يتفرع عنه من أحكام تعميمية ظالمة للقدماء حول اهتمامهم بوحدة البيت على حساب وحدة القصيدة.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- مصادر الأحاديث النبوية:

١- الترمذى "أبو عيسى محمد بن عيسى"، الجامع الكبير "سُنن الترمذى"، ج٥، تحقيق: شعيب الأرناءوط، د.ت، دار الرسالة العالمية.

٢- أبو داود "سليمان بن الأشعث الأزدى السِّجِسْتانى"، سُنن أبى داود، ج٦، تحقيق: شعيب الأرناءوط، د.ت، دار الرسالة العالمية.

- دواوين الشعراء:

١- ديوان امرئ القيس "حُنْدُج بن حُجْر الكِندى"، تحقيق: حسن السندوبى، ضبط وتصحيح: مصطفى عبدالشافى، ط٥، ٢٠٠٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- ديوان عمر بن أبى ربيعة "أبو الخطاب عمر بن عبد الله"، تقديم: فايز محمَّد، ط٢، ١٩٩٦، دار الكتاب العربى، بيروت.

٣- ديوان مجنون ليلى "قيس بن المُلوَّح"، جمع وتحقيق وشرح: عبدالستار أحمد فراج، د.ت، مكتبة مصر، القاهرة.

٤- ديوان النابغة "أبو أمامة زياد بن معاوية"، عناية وشرح: حمدو طماس، ط٢، ٢٠٠٥، دار المعرفة، بيروت.

- المصادر القديمة:

١- ابن الأثير "أبو الفتح نصر الله بن أبى الكرم... الجَزَرى"، المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ج٣، تحقيق: أحمد الحوفى وبدوى طبانة، د.ت، دار نهضة مصر، القاهرة.

٢- الإربلى "أمين الدين على بن عثمان"، كتاب القوافى، تحقيق: محمد المصرى، ط١، ٢٠٠٩، دار سعدالدين، القاهرة.

٣- الأزهرى "أبو منصور محمد بن أحمد"، تهذيب اللغة، ج١٢، تحقيق: أحمد عبدالعليم البردونى، د.ت، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٤- الجوهرى "إسماعيل بن حمَّاد"، الصحاح؛ تاج اللغة وصِحاح العربية، ج٦، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط٢، ١٩٧٩، دار العلم للملايين، بيروت.

٥- الخليل بن أحمد الفراهيدى، معجم العين، ج٣، تحقيق: عبدالحميد هنداوى، ط١، ٢٠٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦- الدانى "أبو عمرو عثمان بن سعيد الأندلسى"، المُكتَفَى فى الوقف والابتدا فى كتاب الله "عزَّ وجل"، تحقيق: يوسف عبدالرحمن المرعشلى، ط٢، ١٩٨٧، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٧- ابن رشيق "أبو على الحسن بن رشيق القيروانى"، العمدة فى صناعة الشعر ونقده، تحقيق: النبوى عبدالواحد شعلان، ط١، ٢٠٠٠، الخانجى، القاهرة.
٨- الزَّبيدى "السيد محمد مرتضى الحُسينى"، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، ١٩٦٥، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
٩- الزركشى "بدر الدين محمد بن عبدالله"، البرهان فى علوم القرآن، تحقيق: أبوالفضل الدمياطى، ٢٠٠٦، دار الحديث، القاهرة.
١٠- السيوطى "جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن"، الإتقان فى علوم القرآن، تحقيق وتخريج الأحاديث: شعيب الأرناءوط، تعليق: مصطفى شيخ مصطفى، ط١، ٢٠٠٨، مؤسسة الرسالة.
١١- الشنترينى "أبو بكر محمد بن عبدالملك"، الكافى فى علم القوافى، تحقيق: علاء محمد رأفت، ٢٠٠٣، دار الطلائع، القاهرة.
١٢- العسكرى "أبو هلال الحسن بن عبدالله"، كتاب الصناعتين؛ الكتابة والشعر، تحقيق: على محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٩٥٢، دار إحياء الكتب العربية.
١٣- ياقوت الحموى "شهاب الدين أبو عبدالله"، معجم البلدان، الأجزاء: ١، ٢، ٤، ٥. ١٩٧٧، دار صادر، بيروت.

- المراجع الحديثة:

١- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط٦، ٢٠٠٩، عالم الكتب، القاهرة.

٢- سعيد الأيوبى، عناصر الوحدة والربط فى الشعر الجاهلى، د.ت، مكتبة المعارف، الرباط.

٣- محمد حماسة عبداللطيف، الجملة فى الشعر العربى، ط١، ١٩٩٠، الخانجى، القاهرة.

٤- محمود خليل الحصرى، معالم الاهتداء إلى معرفة الوقوف والابتداء، ٢٠٠٢، مكتبة السُّنَّة، القاهرة.

- الرسائل العلمية:

١- الفاتح محمد محمد، الوقفة فى المسرح الشعرى عند صلاح عبدالصبور "دراسة تحليلية"، رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بسوهاج، "غير منشورة"، ٢٠١٥.